

المسلمون الأعاجم اتخذوا اللغة القرآن لغة للفكر والعلم دولة إسلامية تتخذ العربية لغة رسمية .

للككتور عبد الرحمن حميدق

دكتوراه الدولة في الجغرافيا من السوربون
استاذ بكلية الآداب من جامعة دمشق

ما يمكن من الصلات التي تشد الارتكاز الى الاسلام وبالتالي الى العرب . واذا كانت اللغة العربية تدرس وتدرس في كثير من الجامعات الاجنبية فسيب ذلك يعود لدوافع عديدة ، اقتصادية وسياسية ، وغالبا تبشيرية ترمي الى تقويض الاسلام والقضاء ، بالتالي ، على اللغة العربية ذاتها .

ومن نافلة القول التنويه بما اصاب اللغة العربية من اهمال ومضايقات ابان الحكم الاوروبي الذي هيمن على افطار المغرب العربي الاربعة واعني بها : المغرب والجزائر وتونس وليبيا ، حتى راح اهل الفيرة والحمية يتباحثون في مصير اللغة العربية والاسلام في البلاد المذكورة الى ان اذن الله بزوال الكابوس الفاشم ، وراحت اللغة العربية تسترد مواقعها السابقة ، واصبح التعريب الشغل الشاغل لسدى المسؤولين عن الثقافة في المغرب العربي .

نعم ، انا اقول مع القائلين بوجود علاقة سببية بين الاسلام واللغة العربية وما سبق لي ان قلته آنفا يؤيد هذه العلاقة بين الاسلام ولسان الضاد اللذين كان سيرهما متوازيا تقريبا خلال التاريخ الاسلامي . هذا كما انتشرت اللغة العربية بصفتها لغة القرآن والعبادات والشريعة بين الشعوب التي اعتنقت الاسلام الحنيف ، اذ لا يمكن للمسلم ان يلم بمقومات دينه دون ان يكون لديه زاد معقول من الالمام باللغة الفصحى . اصف الى ذلك ان الامم الاسلامية - من

نعم ، هناك تلازم وارتباط وثيقان ما بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة العربية ، اذ يكفسي ان نشير الى ان رقعة العالم العربي الحالية تعادل اكثر من اربعة امثال مساحته قبل ظهور الاسلام ، والعكس صحيح ايضا ، اذ ما ان افل نجم الحكم الاسلامي عن شبه جزيرة ايبيريا (البرتغال واسبانيا) حتى تقوضت اللغة العربية هناك من اركانها وتقلص ظلها بسرعة مذهلة فاقتصرت على بضعة مئات من المفردات المشوهة . وانا لنلمح نفس الشيء في عصرنا الحاضر تماما .

فعلى اثر الثورة البلشفية ، عام 1917 ، في روسيا القيصرية وظهر الشيوعية كسلطة حاكمة فحسب بل معادية للدين Laïc ليست علمانية Antireligieux ، توقف نشاط الدراسات العربية والاسلامية في مراكز هامة من مراكز الثقافة العربية الاسلامية مثل باكو في جمهورية آذربيجان ، وقازان عاصمة التتار ، وبخارى وسمرقند في التركستان فضلا عن الكف عن استعمال الحروف العربية في الكتابة المحلية القومية . هذا ويمكن ان يقال نفس الشيء بالنسبة لتركيا الكمالية التي ادت علمانيته Laïcisme ، اي فصل الدين ، وهو الاسلام ، عن الدولة الى ابطال الكتابة بالحروف العربية وحتى الكلمات العربية واتخاذ كلمات طورانية الاصل واوروبية عوضا عن مثيلاتها في العربية ، وقطع اكثر

غير العرب - فضلت قراءة القرآن كما انزل ، دون ان تلجأ الى ترجمته الى لغاتها الاصلية خشية ان تؤدي ترجمته الى ضياع رونقه وبلاغته .

واذكر كاستبدال على ذلك ما نلاحظه في عالما العربي من سهولة تمثّل Assimilation المسلمين من غير العرب - كالشركس والاكراد والبربر والفرس في الامة العربية وتعربهم بسرعة فائقة فسي حين تظل الجماعات غير المسلمة ، كالارمن والآشور وزنوج جنوبي السودان ، والاقليات الاوروبية في اقطار المغرب ، غائبة على التعرب والتمثّل ، محافظة على لغاتها ، متفردة عن محيطها ، باستثناء السريان وبقايا الآراميين نظرا لشدة قرب لغتهم من العربية .

لا اشك ابدا - سواء اكان الامر يتعلق ببلدي ام بالبلاد الاسلامية الاخرى - بان الوعي الاسلامي والوازع الديني يمتدان ويتقلصان كلما اعتري اللغة العربية الضعف واستفحلت الامية والجهل ، وتباعدت الشقة بين الفصحى واللغة الدارجة ، بحيث يصبح فهم وادراك القرآن والحديث بعيدا عن متناول سواد الجماهير . ولكن ليس ما أقوله بقاعدة مطلقة اذ نجد ان بعض الاقوام الحديثة العهد ، نسبيا ، بالاسلام تكون اكثر تمسكا بتعاليم الدين ، حتى المغالاة ، علما بأنها ابعد من العرب بكثير عن فهم الاسلام وتعاليمه . والغريب ان نلاحظ ايضا ان العرب خاصة ، والمسلمين عامة ، كانوا يتمسكون بدينهم ، وهم تحت نير الحكم الاجنبي ، اكثر من تمسكهم ، بعد نيل الاستقلال . ولعل ذلك يعود الى ان الجماهير كانت تعتقد حينذاك ان تركها للاسلام ، وقيمه الخلقية الرفيعة ، هو الذي اوقعها تحت وطأة الاستعمار وبلائه ، في حين ان الكثيرين من المثقفين ، المسحورين بآراء المبشرين والمستشرقين ، راحوا يجاهرون ، بعد الاستقلال ، بان سبب تخلف المسلمين هو الاسلام ، مع

العلم بان الاسلام كان الباعث على التقدم والازدهار والمعرفة في البدء ، فكيف ؛ يصبح عنصر تأخر ورجعية حاليا ؟ هذا مع ان الاسلام كدين لم يطرأ عليه أي تعديل او تحويل وما زال القرآن بخير وسلامة .

- ان اثر الفكر الاسلامي ، الناجم عن لغة القرآن ، في اللغة الاقليمية واللهجات ، في الاقطار الاسلامية غير العربية ، او لدى الجاليات الاسلامية في الاقطار الغربية او الاسيوية ، اقول ان اثر الفكر الاسلامي واضح جدا لدى هذه الشعوب ، سواء في لغة التخاطب اليومية او في آدابها . كما ان شدة اعجاب هذه الاقوام بالعربية واعتزازها بها جعل كتابها وعلماءها ، بالماضي ، يتخذون العربية لغة الفكر والعلم كالفارابي والخوارزمي وابن سينا وسواهم ، كما ان الاسلام يسر لهم تعلم العربية بصورة مذهشة . واذكر ان ميرزا محمودوف ، وزير التعليم في جمهورية تناريا ذات الاستقلال الذاتي في الاتحاد السوفياتي يجيد العربية كتابة وكلاما بطلاقة لم اعدها في اي مستشرق آخر ابدا . واؤيد ما ذهبت اليه بالرغبة التي ما زالت تبديها بعض الشعوب الاسلامية غير العربية ، في جعل اللغة العربية لغة رسمية كباكستان ، او كما حدث عمليا في الصومال التي اصبحت فيها العربية اللغة الرسمية حتى لتعتبر نفسها عضوا ، غير منتسب بعد ، في الجامعة العربية .

- ان تأثير اللهجة الاقليمية السورية في التعابير العربية المحلية قليل ومحدود وفي تناقص مستمر .

- وارى ان تحتل اللغة العربية مكان الصدارة ، بلا منازع ، بالنسبة للغات الاجنبية لا سيما في تدريس التاريخ والجغرافيا والفلسفة ، باستثناء المواد العلمية البحتة ، كالرياضيات والفيزياء والكيمياء ، طالما لم يتم بعد اتفاق شامل بين المختصين في العالم العربي على تعريب المصطلحات الاساسية فضلا عن الاختلافات في ترجمة بعض المصطلحات بين مختصي القطر الواحد .